سعاد الضعيفة المتهالكة، فترتد وراءها خطوة أو خطوات، وتؤجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول!

وقد تغيرت سيرة سيدي أيضًا؛ فهو محبٌّ يلقى من الحب عناء وبلاء، ويجد من آلامه مثل ما أجد، ولكن كبرياءه قد رُدت إليه هو أيضًا فأصبح يتمنى في غير إلحاح، ويأمل في غير إلحاف، كأنما أحس في حبه شيئًا من حياء فآثر القصد والاعتدال، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فآثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذي لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان.

ولكنه يقبل عليَّ ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا، وفيها كثير من الحزن، وفيها شكٌّ يتردد بين الرضا والحزن. يقبل عليَّ ذات مساء لا ثائرًا ولا مستسلمًا، ويقول لي في صوت لا حدة فيه: لقد آن لك أن تستريحي، وآن لي أن أستريح! فأنظر إليه نظرة التي لم تفهم عنه والتي تعودت أن تسمع كثيرًا فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع، ولكنه يعيد عليَّ حديثه فأسأله عما يريد، فيقول: سنفترق لأني نقلت إلى القاهرة.

وتقع من نفسي هذه الجملة موقع الصاعقة، وإذا أنا ذاهلة لا أجيب ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول، وإذا أنا أجد شيئًا من الدوار يكاد يبلغ بي الإغماء لولا أن أتمالك، وإذا الدموع تنهمر في صمت متصل، وإذا الفتى يدنو مني فلا أرتد عنه، وإذا هو يضع يديه على كتفي فلا أمتنع عليه، وإنما أنا مغرقة في الصمت ودموعي ماضية في الانهمار، والفتى قائم بمكانه مني في هدوء لم أعهده، ينظر إلي صامتًا دهشًا، ثم ينأى عني قليلًا وهو يقول في صوت شاحب: ماذا أرى! إنك لتكرهين فراقي حقًّا!

ثم يعود إلى صمته، وأمضي أنا في صمتي، وتمضي دموعي في الانهمار، وما أدري أطال بيننا هذا الموقف أم قصر، ولكني أسمعه يدعوني في صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممتلئًا مشرقًا كما عرفته، وأرفع رأسي وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهًا مشرقًا أشد الإشراق قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء، وإذا هو يقول لي: أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفترق، ستصحبينني إلى القاهرة، ولن ينالك مني إلا ما تحبين، هلم فامضي في شئونك كما تعودت أن تفعلي، هيئي من أمرك وأمري للسفر، فلن نقيم هنا إلا أيامًا.

ثم ينصرف عني كما أقبل عليَّ هادئًا رزين الخطى، وقد أنكرت من نفسي كل شيء، وأهم أن ألوم نفسي على هذا الضعف الذي لم أستطع إخفاءه، ولكني لا أجد من نفسي